لكل قوم موسيقاه

لان أوتار أعصابه السمعية مدوزنة عليها

جرى حديث في حفل عائلي عن الموسيقى غربية وشرقية، بعضهم يطربون من الموسيقى الغربية وينفرون من الشرقية . وآخرون بالعكس، وكلهم شرقيون . وجعلوا يتساءلون عن السر في هذا الإختلاف في حين أن الموسيقى فن شائع يستلذه جميع الأقوام على السواء. وكان تفسير بعضهم أن الموسيقى التي لا تطربك لا تفهمها . وهو تفسير سخيف كل السخف لأن الموسيقى ليست فلسفة ولا هي علم يفهمه العقل، وإنما هي فن يتقبله الذوق . والذوق يتربى كما يتربى العقل . ولكل قوم موسيقاه ، كما أن لكل قوم لغته . فلا تستغرب أن الشرقي لا يستلذ موسيقى الغربي، كما أنه لا يفهم لغته . وكذلك الغربي لا يستلذ موسيقى الشرقي كما أنه لا يفهم لغته . لا تفهم لغة الأجنبي إلا اذا تعلمتها وخالطت أهلها، وكذلك لا تستلذ موسيقاه إلا إذا سمعتها كثيراً منذ الصغر .

على أن كثيرين من الشرقيين الذين يفضلون الموسيقى الغربية على موسيقى قومهم لا يتذوقون لا هذه ولا تلك ، وانما يزعمون هذا الزعم بدعوى أن الموسيقى الغربية أرقى من موسيقانا، وهم يريدون أن ينتموا الى القوم الراقين . فيتباهون أنهم حضروا الأوبرا وأعجبوا بألحانها ، ويذكرون القطعة الفلانية واللحن الفلاني . وموسيقى النابغة فلان . وهم لا يميزون بين هذه وتلك . ولا يقفون عند هذا الحد، بل يرمون الموسيقى الشرقية بالسخف والسقم والرجعية وخلوها من الفن، الى غير ذلك مما يدلنا على جهلهم بها ، بل يدل على جهلهم المطلق للفن الموسيقي بتاتاً . فهم يفضلون الموسيقى الأفرنجية لا لأنهم تذوقوها، كلا . بل لأنهم يتذرعون بهذا التفضيل الى دعوى الرقي في المدنية .

ولو كانوا من يفهمون الفن الموسيقي ودرسوا أصول الموسيقى الشرقية العربية

والتركية على الأقل لعرفوا أن لها مزايا ليست للموسيقى الغربية . وبهذه المزايا تنتج ألحاناً ممتازة تستوعب من الطرب ما لا يمكن أن تستوعبه الألحان الغربية . وإذا قارنت السلّم الموسيقي الغربي بالسلّم الشرقي اكتشفت هذه المزايا وأدركت سرّ الطرب وعرفت موطنه

السلّم الغربي مقسم الى سبع درجات متقاربة غير متساوية في الفسحات ، ونعني بالفسحات هذه الاهتزازات في الثانية بين نغم ونغم . ويتخللها خمسة أنصاف الدرجة، وهذه ليست نصفية تماماً . ترى الدرجات وأنصافها في مفاتيح البيانو متساوية للنظر ، ولكنها ليست كذلك بمقياس الاهتزازات الذي يضبط اهتزازات كل نغم .

وأما السلّم الشرقي ففيه سبع درجات كالسلّم الغربي ، ولكن فيه أرباع درجات أيضاً. فضلاً عن الأنصاف. وفي بعض الأنغام يستعمل نصف ربع درجة أي ثمن درجة . ولهذا أمكن أن تتنوّع الألحان الشرقية أنواعاً كثيرة باستعمال هذه الأرباع والأثمان . فنشأت عندنا ألحان متعدّدة بهذه الأسماء : الرصد والبياتي والحجاز على أنواعه والنهوند والسيكاه والصبا الى غير ذلك من الألحان، وهي كثيرة .

هذه الألحان تنشأ من استعمال النصف والربع والثمن بدل الدرجة الكاملة . ولهذا لا يمكن أن تعزف على البيانو وأشباهه ، ولا على الآلات النفخية المقيّدة الدرجات التي لا تحيد عن نصف الدرجة البتة — وما أمكن اصدار لحن الحجاز كار والنهوند على البيانو. أما الألحان الأخرى فيستحيل اصدارها . وهذا هو السبب في ان الموسيقى الشرقية تمتاز على الغربية امتيازاً بيناً ، وما يختلفان ذوقيًّا ، ليس لأن احداها أرقى من الأخرى ، بل لأن الأذواق تختلف باختلاف التربية منذ الصغر .

ثم أن السلّم الأساسي في الموسيقيين يختلف اختلافاً دقيقاً — أي أن « دو . ري . مي . فا صول . لا . سي » الغربية هي غيرها في الموسيقى الشرقية — تدرك هذا جيداً إذا كلفت موسيقيًّا أجنبيًّا أن يعزف على الكمان قطعة شرقية مربوطة بالعلامات الأفرنجية فتسمعها نافرة جدًّا خلافاً لها فيما لو عزفها الشرقي، ترى فرقاً بيناً بين العزفين . لا تستذوقه من عزف الأجنبي قط ، ولكنك تستذوقه من عزف الشرقي . لأن النغم « مي » مثلاً في عزف الأجنبي غير « مي » في عزف الشرقي ونفس عليه .

وقد سمعت مرة سيدة شرقية درست الغناء الغربي فقط واقتصرت عليه — سمعتها تغني « ملقطوقة » مصرية تعلمتها ، فلم تملك أن تنفر منها نفوراً ظاهراً .

* * *

بقي أن نفهم السر في أن كل قوم يتذوقون موسيقاهم وينفرون من غيرها . فلا يخفى أن أداة السمع هي الأذن ، ومن طبلة الأذن تمتد الأوتار العصبية الى مركز السمع في الدماغ عن طريق الحبل الشوكي . وهذه الأوتار العصبية كالوتر الموسيقي يهتز اهتزازاً فسيولوجيًّا مطابقاً لاهتزاز الوتر الموسيقي، فيحمل نغمه الى مركز الأنغام في الدماغ . ولما كان الشخص يسمع من الصغر ألحان قومه ، فأوتار أعصابه السمعية تتدوزن مع الوقت كدوزان الآلات التي يسمعها وتهتز كاهتزازها . فاذا سمع أنغاماً تختلف اهتزازاتها عن اهتزاز أوتار أعصابه ينفر منها كما ينفر ذوقك من سمع أنغام لا وفاق بينها No Harmony

أعني أن أوتار أعصابك السمعية تهتز متوافقة مع ألحان قومك لأنها مدوزنة عليها منذ الصغر فتطرب لها . ولكنها لا تهتز اهتزازاً موافقاً لألحان غريبة عنك فلا تهتز بها أعصابك السمعية ، وبالتالي لا تطرب لها .

فسألة أن الألحان الأفرنجية لا تلذ لنا لا تفسير لها إلا أن أوتار أعصابنا غير مدوزنة عليها ، ليس لأنها غير جميلة أو خالية من الذوق . وأما الألحان القومية فتلذ لنا لأن أوتار أعصابنا مطابقة لها في الدوزان .

لا معنى لقولك أن الألحان الأجنبية جميلة والألحان الوطنية قبيحة لأنك تستلذ تلك ولا تستلذ هذه، المسألة مسألة دوزان أعصاب . فالغناء أو العزف الذي تسمعه منذ الصغر وتسمعه كثيراً ولا تسمع غيره يطربك ، وغيره لا يطربك للسبب الذي شرحناه .

اسمعني أعظم أوبرا ثم أسمعني بشرف رصد عاصم بك مثلاً أعرض عن الأوبرا واستغرق في هذا . ولا تلومني ولا ألومك اذا فعلت عكس ما أنا فعلت .

لكل شعب موسيقاه يستلذها ويطرب لها ، وينفر من غيرها . فلا تلم ، ولا تمتز ، ولا تعجب .